

(المتأثقفون) فوق جثاميننا

صدام الرنتاوي

يتحدث الكثير من المثقفين الفلسطينيين عن تردي حال المشهد الثقافي الفلسطيني، دون إعطاء مبررات لذلك في أحيان كثيرة، ربما لعدم رغبتهم في الاصطدام بالجبال العالية، التي لا يستطيعون تسلقها، مهما حاولوا، أو ربما لأنهم لا يرغبون بالبحث عن وظائف أخرى غير تلك التي حصلوا عليها بشق الأنفس.

«الجو ملبد بالغيوم وضبابي» . . هذا ما قاله أحد المثقفين، الذين لا حول لهم ولا قوة إلا وصف الحالة، ومحاولة تشخيصها، ليس إلا . . الحالة، كما يقول البعض، وكما أرى تدعو إلى السخرية، وربما إلى الضحك، وربما إلى التقيؤ أحياناً، فكثير من المثقفين لا يجدون العمل المناسب، في حين يبدل المتأثقفون كرسيًا تلو الآخر، إلى أن يجلسوا ذات يوم فوق جثاميننا. أعتقد أنه ليس من الغريب أن يصل المتأثقفون إلى مبتغاهم في هذه الغفلة الثقافية، التي نعيشها، أو بمعنى أدق تفرض علينا . . إنهم في تزايد مضطرد، ففي الوقت الذي بدأ فيه المثقفون الفلسطينيون يعانون من مخاطر الانقراض، بدأت «عصابة» المتأثقفين تتكاثر بصورة مهولة ومثيرة للرعب والاشمئزاز أحياناً.

الأمر ليس صعباً، ما عليك إلا شراء بذلة أو اثنتين، وحفنة من القمصان والأحذية اللامعة، وأن تحفظ بعض المصطلحات «الثقيلة»، وتعمل على تكرارها في كل مناقشة أو عن الإجابة على أي تساؤل . . وأحياناً لن تحتاج البذلة أو الأحذية اللامعة إذا كنت قادراً على أن تكون «ذيلاً» لأحد المتأثقفين الكبار، وبالتالي توفر على نفسك العناء . . سيكون من السهل عليك الحصول على ما يتبقى من الفتات، أو بمعنى أدق على المخلفات، التي هي، رغم حقارتها، مكسب كبير إذا قورنت بحال المثقفين الحقيقيين في بلادنا.

قد يتساءل البعض: ما هي مواصفات المتأثقف، وما الفرق بينه وبين المثقف؟ . . لن أجيء على مثل هذا التساؤل الصعب، سيما أن في بلادنا أكثر من ألف سلاسة من المتأثقفين، ومنها سلاسل نادرة لا توجد إلا في فلسطين، لكنها لا تعاني الانقراض، وأعتقد أن جولة في عدد من المؤسسات، وحضور بعض الفعاليات «الثقافية» كفيلاّن بالإجابة على هذه التساؤلات، ولكن بنسبة محدودة، فالقضية تحتاج الكثير من البحث والتمحيص.

يبقى القول إن الفرق بين المثقف والمتأثقف هو تماماً مثل الفرق بين السيارة وباتعة الهوى . . فكلاهما في النهاية لا بد من أن يقدم ضروب الطاعة لـ«الكبار»، المتأثقفون نجحوا في ذلك نوعاً ما، فحصلوا على الفتات، أما المثقفون فبعضهم يرفض الفكرة، وبالتالي فهم (المثقفين) في طريقهم نحو الانقراض غير الطوعي، والبعض الآخر يحاول . . ينجح تارة فيصبح مزاراً للمثقفين، ويفشل تارة أخرى فيصبح مزاراً للموتى . . أو قصاصة في عدد قديم من صحيفة.